من مقاصد القصة القرآنية معرفة سنن الله الاجتماعية

الأستاذ: يوسف سرطوط
جامعة الجلفة – الجزائر

مقدمة :

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ρ .

ليست القصة القرآنية عملاً فنيًا مطلقًا مجردًا عن الأغراض التوجيهية ، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق مقاصده الدينية الربانية ، فهي إحدى الوسائل لإبلاغ الدعوة الإسلامية وتثبيتها .

لقد تحدّث القرآن الكريم عن السنن الإلهية في حركة الإنسان والمجتمع ، وأكّد أهميتها، وجاءت القصة في القرآن الكريم من أجل تجسيد هذه السنن في الوقائع والأحداث ؛ ذلك أن المجتمع الإنساني يخضع في حركته وتطوره إلى قوانين وسنن صارمة لا تحابي ولا تجامل أحداً .

وسنشير هنا إلى بعض هذه السنن التي تحدّث عنها القرآن الكريم مع ذكر القصص والحوادث ذات العلاقة بها ، ونظرا لضخامة الموضوع واتساعه ، سنتطرق له بشكل مختصر مجمل وفق الخطة التالية :

المبحث الأول : تحديد مفاهيم الموضوع

المطلب الأول : مفهوم المقاصد

المطلب الثاني : مفهوم القصة القرآنية

المطلب الثالث : مفهوم سنن الله

المبحث الثاني : نماذج عن السنن الاجتماعية

المطلب الأول : سنة التغيير

المطلب الثاني : سنة انتصار الحقّ على الباطل

المطلب الثالث : سنة الابتلاء وعموم الامتحان

الخاتمة

المبحث الأول

تحديد مفاهيم الموضوع

إن موضوعنا هذا يحوي طائفة من المفاهيم التي لا بد من بيانها وإيضاحها أولاً ، ليتسنى لنا فهم الموضوع ومتابعة مراحله ؛ لذا سنقوم بتحديد هذه المفاهيم من الناحيتين : اللغوية والاصطلاحية ، وهي مفهوم المقاصد ، مفهوم القصة القرآنية ، مفهوم سنن الله الاجتماعية .

المطلب الأول : مفهوم المقاصد :

الفرع الأول : المقاصد في اللغة :

المقاصد جمع مقصد، والمقصد: مصدر ميمي [1] مشتق من الفعل قصد ؛ فيقال: قصد يقصد قصدًا وَمقْصَداً، فالقصْدُ والمقْصَدُ بمعنى واحد ، وعليه فإن القصد له معان لغوية كثيرة منها[2]: الاعتزام، والتوجه ، والأمُّ ، وإتيان الشيء ، واستقامة الطريق ، والعدل ، والتوسط ، وعدم الإفراط.

وخلاصة القول في المعنى اللغوي لكلمة (القصد) قول ابن جني : " أصل مَادَّة " ق ص د " ومواقعها فِي كَلَام الْعَرَب: الاعتزام، والتوجه، والنهوض نَحْو الشَّيْء، على اعْتِدَال كَانَ ذَلِك أَو جور. هَذَا أَصله فِي الْحَقِيقَة، وَإِن كَانَ قد يخص فِي بعض الْمَوَاضِع بِقصد الاسْتقَامَة دون الْميل. أَلا ترى أَنَّك تقصد الْجور تَارَة كَمَا تقصد الْعدْل أُخْرَى، فالاعتزام والتوجه شَامِل لَهما جَمِيعًا "[3].

الفرع الثاني : المقاصد في الاصطلاح :

عرفها الريسوني بقوله: "إن مقاصد الشريعة هي الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد"[4].

وعرفها الدكتور محمد بن سعد اليوبي بقوله : المقاصد هي المعاني والحكم ونحوها التي راعاها الشارع في التشريع عموما وخصوصًا من أجل تحقيق مصالح العباد"[5].

المطلب الثاني : مفهوم القصة القرآنية :

الفرع الأول : القصة في اللغة :

جاء في الصحاح : " قَصَّ أثَرَه، أي تتبَّعه. قال الله تعالى: ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾[6]. وكذلك اقْتَصَّ أثَرَه، وتَقَصَّصَ أثَرَه. والقِصَّةُ: الأمرُ والحديث. وقد اقْتَصَصْتُ الحديث: رويته على وجهه. وقد قَصَّ عليه الخبرَ قَصَصاً. والاسمُ أيضاً القَصَصُ بالفتح، وُضِعَ موضع المصدر حتَّى صار أغلبَ عليه. والقِصَصُ، بكسر القاف: جمع القصة التى تكتب "[7].

والخلاصة أن مادة (قصص) تقوم على التتبع ، سواء كان التتبع ماديا : كقص العظام وقص الشعر وقص الأثر ، أو كان التتبع معنويا كقص الأخبار وقص الكلام "[8].

الفرع الثاني : القصة في الاصطلاح :

القصة في عرف عامة الناس معروفة مشهورة بأنها الحكاية والخبر ، وهي متطابقة المعنى مع المفهوم اللغوي ، أما مفهوم القصة الأدبية التي هي من نسج الخيال الإنساني والتعبير البشري فلا علاقة لها بالقصة

القرآنية إلا من حيث التسمية ؛ نظرا لاختلافهما الكبير من حيث الخصائص الذاتية والفنية ؛ إذًا فنحن بصدد تحديد المعنى الاصطلاحي للقصة القرآنية دون سواها ، فنقول وبالله التوفيق :

يقول عبده بلبول : " القصص القرآني هو إخبار الله عما حدث للأمم السابقة مع رسلهم ، وما حدث بينهم وبين بعضهم ، أو بينهم وبين غيرهم أفرادًا وجماعات من كائنات بشرية أو غير بشرية ، بهدف الهداية والعبرة "[9].

ويذكر لها محمد خير العدوي تعريفًا فيقول : " هي كل خبر موجود بين دفتي المصحف ، أخبر به الله تعالى رسوله محمدا ρ بحوادث الماضي ، بقصد العبرة والهداية ، سواء أكان ذلك بين الرسل وأقوامهم ، أم بين الأمم السابقة أفرادا وجماعات "[10].

المطلب الثالث : مفهوم سنن الله :

الفرع الأول : مفهوم السنة في اللغة :

قال ابن فارس : " (سَنَّ) السِّينُ وَالنُّونُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُطَّرِدٌ، وَهُوَ جَرَيَانُ الشَّيْءِ وَإِطْرَادُهُ فِي سُهُولَةٍ، وَالْأَصْلُ قَوْلُهُمْ سَنَنْتُ الْمَاءَ عَلَى وَجْهِي أَسُنُّهُ سَنًّا، إِذَا أَرْسَلْتَهُ إِرْسَالًا....... وَمِمَّا اشْتُقَّ مِنْهُ السُّنَّةُ، وَهِيَ السِّيرَةُ. وَسُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سِيرَتُهُ. قَالَ الْهُذَلِيُّ:

فَلَا تَجْزَعَنْ مِنْ سُنَّةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا ... فَأَوَّلُ رَاضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُهَا .

وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَجْرِي جَرْيًا. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: امْضِ عَلَى سَنَنِكَ وَسُنَنِكَ، أَيْ وَجْهِكَ. وَجَاءَتِ الرِّيحُ سَنَائِنَ ، إِذَا جَاءَتْ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ[11] .

و قال ابن منظور : والسنة – في اللغة تعني – السيرة ، حسنة كانت أم قبيحة[12] .

وقال ابن الأثير : والأصل في هذا اللفظ . السنّة . الطريقة والسيرة . وفي حديث المجوس (سنوا بهم سنة أهل الكتاب)[13] ؛ أي خذوهم على طريقتهم وأجروهم في قبول الجزية منهم مجراهم[14] .

وقال الفيروز آبادي في معنى السنة : والأصل فيها الطريقة والسيرة ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من سن في الإسلام سنة حسنة)[15] أي طرق طريقة حسنة ... وسنة النبي صلى الله عليه وسلم طريقته التي كان يتحرّاها[16].

وقال ابن تيمية : (والسنّة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول ، ولهذا أمر الله تعالى بالاعتبار)[17].

وقال الإمام الرازي : (والسنة : الطريقة المستقيمة والمثال المتبع)[18] .

الفرع الأول : مفهوم (سنة الله) في الاصطلاح :

قال الدكتور عبد الكريم زيدان : " يلاحظ أن هذه الكلمة يدور معناها على معنى ((الطريقة المتبعة)) فيكون معنى (سنة الله) هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة "[19].

وفي الحقيقة فإن هذا التعريف ينطبق انطباقا تاما على مفهوم سنة الله الاجتماعية ؛ ذلك أن الدكتور زيدان يرى أن (سنة الله) – الجارية – تنقسم إلى قسمين[20] :

01 – (سنة الله) . المتعلقة بالأشياء والظواهر والأحداث المادية .

02 – (سنة الله) المتعلقة بسلوك البشر وأفعالهم في الدنيا وما يترتب عليها من نتائج في الدنيا والآخرة .

المبحث الثاني

نماذج عن السنن الاجتماعية

لقد تضمن القرآن خلاصة السنن التي تحكم المجتمعات والأمم ؛ تارة نصا، وتارة فحوى ودلالة ، وتارة أخرى بما يعرض من القصص القرآني ؛ عن نهوض الأمم والحضارات وسقوطها ، وربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج ، بشكل أشبه ما يكون بالمعادلات الرياضية التي تحكم عالم المادة ؛ ليعتبر أولوا الأبصار.

إن القصص القرآني نبع لا ينضب لاستخلاص السنن لمن رزقه الله الفهم والفقه ، وإلا فما فائدة هذا القصص الخالد إذا لم ينشئ عقلا مستنبطا للقوانين والسنن ؛ التي تحكم التجمع الإنساني ، وتتحكم بقيام وسقوط الحضارات ، هل هي حكايات لتمضية الوقت أسقطها الزمن وطواها التاريخ ؟!.

يقول ابن تيمية :«ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها ، والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن، وهي كثيرة »(21).

قلت : فذلك قوله تعالى آمرا بالاعتبار : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (22).

وبما أن سنن الله الاجتماعية كثيرة ومتشعبة ؛ فإننا سنقتصر على ذكر ثلاث منها نظرا لضيق المقام فنقول وبالله التوفيق :

المطلب الأول : سنة التغيير:

هذه السنة هي سُنّة ارتباط تغيير الأوضاع الاجتماعية والحياتية للناس بتغيير المحتوى النفسي والروحي لهم، وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذه السنة في عدّة مواضع، منها: قوله تعالى في سورة الأنفال: {ذَلِكَ بِأَنّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْم حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}(23).

وقوله تعالى: {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ }(24).

وقوله تعالى في سورة الرعد: {إِنّ اللّهَ لاَ يُغَيّرُ مَا بِقَوْم حَتّى يُغَيّروا ما بِأَنفُسِهِمْ}(25).

وقوله تعالى من سورة الأعراف: {وَلَوْ أَنّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَات مِنْ السّمَاءِ وَالأرض وَلَكِنْ كَذّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}(26).

وقوله تعالى في سياق القصص القرآني:{ظَهَرَ الْفَسَادُ في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الّذِي عَمِلُوا لَعَلّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الأرض فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ}(27).

ولعلّ من الأمثلة الواضحة على هذا الغرض للقِصّة ما جاء في سورة الأعراف؛ لأنّنا نلاحظ أنّ استعراض قصص نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم السلام وما جرى لهم مع أقوامهم يختم بهذه القاعدة الكلية: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيّ إلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضرّعُونَ * ثُمّ بَدّلْنَا مَكَانَ السّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسّ آبَاءَنَا الضّرّاءُ وَالسّرّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * وَلَوْ أنّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَات مِنْ السّمَاءِ وَالأرض وَلَكِنْ كَذّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[28].

وكذلك ما ورد في قِصّة فرعون وموسى υ وفق ما أشار إليه القرآن الكريم في سورة الأنفال من قوله تعالى: {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْن وَالّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} ولكن يذكره بشكل أكثر وضوحاً في قِصّة موسى υ في سورة الأعراف التي نزلت قبل الأنفال، ويمكن أن نعرف ذلك من وجوه:

1. إنّ هذه القِصّة جاءت في سياق الآيات السابقة التي تحدّثت عن هذه السُنّة .

2. إنّ مضمون القِصّة يؤكّد ذلك من خلال ما ورد فيها من الأمر بالصبر والاستعانة باللّه، ثمّ إصرار الفرعونيين على التكذيب والطغيان، وكيف أنّ اللّه سبحانه وتعالى أخذ آل فرعون بالسنين، ثمّ وراثة الأرض لبني إسرائيل.

المطلب الثاني : سنة انتصار الحقّ على الباطل :

أكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة في عدّة مواضع، منها: قوله تعالى: { وقُلْ جَاءَ الحَقّ وَزَهقَ الْبَاطِل إنّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً}[29].

وبهذا الصدد نجد القرآن الكريم يؤكّد – أيضاً – نصرة اللّه سبحانه وتعالى للأنبياء، وأنّ نهاية المعركة بينهم وبين أقوامهم تكون لصالحهم مهما لاقوا من العنت والجور والتكذيب، حيث دلت بعض الآيات القرآنية على ذلك بشكل مباشر كقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِكْرِ أنّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصّالِحُون}[30]. وقوله تعالى: {إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشْهَاد}[31]. كل ذلك تثبيتاً لرسوله محمد صلّى الله عليه وسلم وأصحابه ، وتأثيراً في نفوس من يدعوهم إلى الإيمان.

وقد نصّ القرآن الكريم على هذا الهدف الخاص للقِصّة – أيضاً – بمثل قوله تعالى: {وَكُلاًّ نَقُصّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ في هَذِهِ الْحَقّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}[32].

وتتبعاً لهذا الغرض وردت بعض قصص الأنبياء مؤكّدة هذا الجانب، بل جاءت بعضها مجتمعة ومختومة بمصارع من كذّبوهم، وقد يتكرّر عرض القِصّة نتيجة لذلك، كما جاء في سورة هود، والشعراء، والعنكبوت، ولنضرب مثلا من سورة العنكبوت:

قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَة إلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمْ الطّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ * وَإبراهيم إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[33] ، إلى أن يقول: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلاَّ أنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللهَ مِنْ النّارِ إنّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يُؤْمِنُونَ}[34] .

وقال تعالى: {وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَد مِنْ الْعَالَمِينَ}[35] ، إلى أن يقول: {إنّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنْ السّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْم

يَعْقِلُونَ * وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فـي الأرض مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فـي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأرض وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهَُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[36] .

فهذه هي النهاية الحتمية التي يريد أن يصورها القرآن الكريم لمعارضي الأنبياء والمكذبين بدعوتهم.

المطلب الثالث : سنة الابتلاء وعموم الامتحان :

إن من السنن الإلهية في حركة الإنسان ووجوده هي: سُنّة الابتلاء والامتحان، وهي سُنّة عامة وشاملة.

قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُم أَيّكُمْ أَحْسَنَ عَمَلاً}[37] .

وقال تعالى: {إنّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَة أَمْشَاج نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً}[38] .

كما أنّ للامتحان أهداف، منها:

1 . التمحيص والتمييز :

إن الامتحان يسير مع الإنسان في حركته التكاملية، وعندما يصبح الإنسان مؤمناً أو مجاهداً يُبتلى ويمتحن من أجل التمحيص والتمييز.

قال تعالى: {مَا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنينَ عَلى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّى يَمِيز الخَبِيث مِنَ الطَيِّبِ}[39] .

وقال تعالى: {وَلِيَعْلَمَ اللهَُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبّ الظّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهَُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمّا يَعْلَمْ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصّابِرِينَ}[40] .

وقال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنّكُمْ حَتّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ}[41] .

2 . الكمال والتربية :

قال رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ "[42] . قال المناوي : " (إذا أحب الله قوما ابتلاهم) بأنواع البلايا حتى يمحصهم من الذنوب ويفرغ قلوبهم من الشغل بالدنيا غيرة منه عليهم أن يقعوا فيما يضرهم في الآخرة وجميع ما يبتليهم به من ضنك المعيشة وكدر الدنيا وتسليط أهلها ليشهد صدقهم معه وصبرهم في المجاهدة "[43]. وفي الحديث بشرى عظيمة لكل مؤمن لأن الأذى لا ينفك غالبًا من ألم بسبب مرض أو همّ أو نحو ذلك[44].

3 . العقوبة والتذكير :

قال تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آل فِرْعَون بِالسِنِينَ وَنَقْص مِنَ الثّمَرَاتِ لَعَلّهُمْ يَذّكّرُون}[45].

وقال تعالى: {وَلَنُذِيقَنّهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ العَذَاب الأَكْبَر لَعَلّهُمْ يَرجِعُون}[46].

ولعل من أوضح الأمثلة في قصص القرآن التي سيقت لموضوع البلاء بجوانبه المتعدّدة وهذه السُنّة الشاملة ما ورد في سورة المؤمنون:

قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * فَقَالَ المَلأُ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأنزَلَ مَلاَئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأوّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنّةٌ فَتَرَبّصُوا بِهِ حَتّى حِين * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذّبُون * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التّنّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنّهُمْ مُغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلْ الْحَمْدُ للهِ الّذِي نَجّانَا مِنْ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * إنّ في ذلِكَ لآيَات وَإِنْ كُنّا لَمُبْتَلِينَ}[47] .

حيث يلاحظ أنّ هذه الآيات جاءت في سياق بيان خلق الإنسان والنعم الإلهية، وختمت بعد ذلك بقوله تعالى: {إنّ في ذلِكَ لآيَاتٍ وإِنْ كُنّا لَمُبْتَلِين}.

4 . ضريبة النصر الإلهي :

إنّ النصر الإلهي لا يتحقق إلاّ بعد التعرض للبأساء والضراء والصبر على البلاء.

قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنّةَ وَلَمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضّرّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتّى يقُولَ الرّسُولُ وَالّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ألاَ إنّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ}[48].

وقال تعالى: {حَتّى إذَا اسْتَيأَسَ الرّسُلُ وَظَنّوا أ نّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}[49].

وقال تعالى: {يَا أيّهَا الّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلّكُمْ عَلَى تِجَارَة تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَاب الِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنّاتِ عَدْن ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ}[50] .

الخاتمة :

إن الكشف عن السنن التي تحكم الحركة الاجتماعية لا يتأتى إلا من السير في الأرض ، واستقراء التاريخ ؛ الذي هو المرآة التي تتجلى فيها سنن الله تعالى ؛ للإفادة منها للحاضر والمستقبل .

والتاريخ في المنهج القرآني (القصص) لا يسير بالصدفة ، ولا يتحرك عبثا وفوضى ، وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والحياة والأشياء سواء بسواء ، والوقائع التاريخية لا تجري اعتباطا ولا عشوائيا ، إنما تقوم على ارتباط أسبابها بمسبباتها ، وعللها بمعلولاتها، ونتائجها بمقدماتها .

إن أحداث التاريخ تتكرر وتتشابه إلى حد كبير لأن وراءها سننا ثابتة تحركها وتكيفها ، ولهذا يقول الغربيون : التاريخ يعيد نفسه، وتقول العرب في أمثالها : ما أشبه الليلة بالبارحة ! ويقول الإمام البيهقي : (لا توجد حادثة لم يحدث مثلها من قبل)، ويقول ابن الأثير : (إنه لا يحدث أمر إلا تقدم هو أو نظيره.)

ولذلك حث القرآن الكريم على السير في الأرض ؛ وعلى دراسة التاريخ المنظور أو المسطور ؛ ببصيرة نفاذة ، ووعي حاضر ؛ لاستخلاص العبر، واستنباط السنن، لتجنب مواقع الخطأ التي قادت الجماعات

البشرية ، والأمم والحضارات السابقة إلى السقوط الحضاري ، والدمار الاجتماعي ، ولسلوك سبيل النهوض والبناء.

وإذا كان الأمر ذلك كذلك ؛ فإن المطلوب اليوم، أكثر من أي وقت مضى؛ في مجال الدراسات القرآنية المعاصرة ، ومناهج التفسير الحديث ، أن نتوجه صوب القصص القرآني بالقدر نفسه الذي نتوجه به نحو آيات الأحكام ، وأن نستنبط منها هذه الكنوز العظيمة في مجال التشريع ، لنكتشف فقها حضاريا في إطار علوم الإنسان ، والقوانين الاجتماعية ، التي تحكم مسيرة الحياة والأحياء ، والتي تخلفنا فيها إلى درجة لا نحسد عليها.

الهوامش :

(1) : ***اَلْمَصْدَرُ الْمِيمِيُّ*** : هو مصدر مبدوء بميم زائدة لغير المفاعلة ، مصوغ من المصدر الأصلي للفعل، يعمل عمله ويفيد معناه، مع قوة الدلالة وتأكيدها. انظر : على الجارم ، ومصطفي أمين : النحو الواضح في قواعد اللغة العربية ، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، (د.ت) 2/ 247 . و النجار : ضياء السالك إلى أوضح المسالك ، 47/3 .

(2) : انظر في هذه المعاني : الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد : كتاب العين ، تحقيق : د مهدي المخزومي ، د إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ، بغداد ، العراق ، 1985م ، 54/5 ، 55 . ابن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي : جمهرة اللغة ، تحقيق : رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى : 1987م ، 656/2 . الأزهري ، أبو منصور محمد بن أحمد الهروي : تهذيب اللغة ، تحقيق : محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى : 2001م ، 8/ 274 – 276 . الجوهري ، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الرابعة : 1407 هـ - 1987 م ، 2/ 524 ، 525 . ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني : معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية : 1399هـ - 1979م ، 95/5 ، 96 . ابن سيدة ، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي : المحكم والمحيط الأعظم ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى : 2000م ، 6/ 185 – 188 .

(3) : انظر : ابن سيدة ، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي : المحكم والمحيط الأعظم ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى : 2000م ، 6/ 187 . ابن منظور ، أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثالثة : 1414 هـ ، 355/3 . الزَّبيدي ، أبو الفيض مرتضى محمّد بن محمّد الحسيني : تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق ، عبد الستار أحمد فراج ، مطبعة حكومة الكويت ، (د.ط) ، 1965 م ، 36/9 .

(4) : الريسوني ، أحمد : نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ، الرياض ، الطبعة الثانية : 1412 هـ - 1992م ، ص 07 .

(5) : اليوبي ، محمد سعد : مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية ، دار الهجرة ، الرياض ، الطبعة الأولى : 1418 هـ - 1998م ، ص 37 .

(6) : سورة الكهف : 64 .

(7) : الجوهري : الصحاح ، 3/ 1051 .

(8) : الخالدي ، صلاح عبد الفتاح : القصص القرآني (عرض وقائع وتحليل أحداث ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الثانية ، 1428هـ - 2007م ، 20/1 .

(9) : بلبول ، عبده إبراهيم محمد : القصص القرآني، رسالة دكتوراه ، تخصص : التفسير ، محفوظة بمكتبة أصول الدين جامعة الأزهر ، القاهرة ، 1971م ، ص 36 .

(10) : العدوي ، محمد خير محمود : معالم القصة في القرآن الكريم ، دار العدوي ، عمان الأردن ، الطبعة الأولى : 1988م ، ص 33 .

(11) : ابن فارس أحمد بن زكرياء القزويني الرازي : معجم مقاييس اللغة ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، 1399هـ – 1979م ، 3/ 60 ، 61 .

(12) : ابن منظور ، محمد بن مكرم : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة: الثالثة – 1414 هـ ، 13 /225 .

(13) : أخرجه مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي في الموطأ ، تحقيق : محمد مصطفى الأعظمي ، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية – أبو ظبي – الإمارات ، الطبعة : الأولى ، 1425 هـ – 2004 م ، (باب جزية أهل الكتاب والمجوس) ، 395/2.

(14) : ابن الأثير ، مجد الدين أبو السعادات : النهاية في غريب الحديث والأثر ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي ، المكتبة العلمية – بيروت، 1399هـ – 1979م ، 410/2 .

(15) : مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري : الجامع الصحيح ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،كتاب العلم ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ، 2059/4 .

(16) : الفيروزآبادي ، مجد الدين : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تحقيق : محمد علي النجار ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ، 1416 هـ – 1996 م ، 267/3

(17) : ابن تيمية ، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم : مجموع الفتاوى ، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ، 1416هـ/1995م ، 13 /20 .

(18) : الرازي ، فخر الدين ، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، الطبعة: الثالثة ، 1420 هـ ، 369/9 .

(19) : زيدان ، عبد الكريم : السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ، مؤسسة الرسالة ناشرون ، ص 10 .

(20) : المرجع السابق : ص 14 .

(21) : ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم : جامع الرسائل ، تحقيق : د. محمد رشاد سالم ، دار العطاء ، الرياض ، السعودية ، الطبعة الأولى : 1422هـ – 2001م ، 55/1 .

(22) : سورة يوسف : 111 .

(23) : سورة الأنفال : 53 .

(24) : سورة الأنفال : 54 .

(25) : سورة الرعد : 11 .

(26) : سورة الأعراف : 96.

(27) : سورة الروم : 41 . 42.

(28) : سورة الأعراف : 94 . 96.

(29) : سورة الإسراء : 81 .

(30) : سورة الأنبياء : 105 .

(31) : سورة غافر : 15 .

(32) : سورة هود : 120.

(33) : سورة العنكبوت : 14 . 16.

(34) : سورة العنكبوت : 24.

(35) : سورة العنكبوت : 28.

(36) : سورة العنكبوت : 34 . 40.

(37) : سورة الملك : 02.

(38) : سورة الإنسان : 02.

(39) : سورة آل عمران : 179.

(40) : سورة آل عمران : 140 . 142.

(41) : سورة محمّد : 31.

(42) : ابن حنبل ، أبو عبد الله أحمد بن محمد : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، عادل مرشد ، وآخرون ، إشراف : د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، دمشق ، الطبعة الأولى : 1421 هـ – 2001م ، 41/39 عن محمود بن لبيد ، رقم **(23623)** .

(43) : فيض القدير (1/ 246)

(44) : شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (8/ 342)

(45) : سورة الأعراف : 130 .

(46) : سورة السجدة : 21 .

(47) : سورة المؤمنون : 23 . 30.

(48) : سورة البقرة : 214.

(49) : سورة يوسف : 110 .

(50) : سورة الصف : 10 . 13.

المصادر والمراجع :

01- ابن الأثير ، مجد الدين أبو السعادات : النهاية في غريب الحديث والأثر ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي ، المكتبة العلمية — بيروت ، 1399هـ - 1979م .

02- الأزهري ، أبو منصور محمد بن أحمد الهروي : تهذيب اللغة ، تحقيق : محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى : 2001م .

03- بلبول ، عبده إبراهيم محمد : القصص القرآني، رسالة دكتوراه ، تخصص : التفسير ، محفوظة بمكتبة أصول الدين جامعة الأزهر ، القاهرة ، 1971م .

04- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم : جامع الرسائل ، تحقيق : د. محمد رشاد سالم ، دار العطاء ، الرياض ، السعودية ، الطبعة الأولى : 1422هـ - 2001م ، 55/1 .

05- ابن تيمية ، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم : مجموع الفتاوى ، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ، 1416هـ/1995م .

06- الجوهري ، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الرابعة : 1407 هـ - 1987 م .

07- ابن حنبل ، أبو عبد الله أحمد بن محمد : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، عادل مرشد ، وآخرون ، إشراف : د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، دمشق ، الطبعة الأولى : 1421 هـ - 2001م .

08- الخالدي ، صلاح عبد الفتاح : القصص القرآني (عرض وقائع وتحليل أحداث ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الثانية ، 1428هـ - 2007م ، 20/1 .

09- ابن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي : جمهرة اللغة ، تحقيق : رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى : 1987م .

10- الرازي ، فخر الدين ، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، الطبعة: الثالثة ، 1420 هـ .

11- الريسوني ، أحمد : نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ، الرياض ، الطبعة الثانية : 1412 هـ - 1992م .

12- الزَّبيدي ، أبو الفيض مرتضى محمّد بن محمّد الحسيني : تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق ، عبد الستار أحمد فراج ، مطبعة حكومة الكويت ، (د.ط) ، 1965 م .

13- زيدان ، عبد الكريم : السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ، مؤسسة الرسالة ناشرون ، دمشق .

14- ابن سيدة ، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي : المحكم والمحيط الأعظم ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى : 2000م .

15- العدوي ، محمد خير محمود : معالم القصة في القرآن الكريم ، دار العدوي ، عمان الأردن ، الطبعة الأولى : 1988م .

16- علي الجارم ، ومصطفي أمين : النحو الواضح في قواعد اللغة العربية ، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، (د.ت) .

17- ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني : معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية : 1399هـ - 1979م .

18- الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد : كتاب العين ، تحقيق : د مهدي المخزومي ، د إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ، بغداد ، العراق ، 1985م .

19- الفيروزآبادي ، مجد الدين : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تحقيق : محمد علي النجار ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ، 1416 هـ - 1996 م .

20- القسطلاني ، شهاب الدين : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، المطبعة الكبرى الأميرية ، مصر ، الطبعة السابعة : 1323 هـ .

21- مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي في الموطأ ، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي ، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية - أبو ظبي — الإمارات ، الطبعة : الأولى ، 1425 هـ - 2004 م ،

22- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري : الجامع الصحيح ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

23- المناوي ، عبد الرؤوف : فيض القدير شرح الجامع الصغير ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، الطبعة الأولى : 1356هـ .

24- ابن منظور ، أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثالثة : 1414 هـ .

25- النجار ، محمد عبد العزيز : ضياء السالك إلى أوضح المسالك ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى : 1422هـ - 2001م.

26- اليوبي ، محمد سعد : مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية ، دار الهجرة ، الرياض ، الطبعة الأولى : 1418 هـ - 1998م .